ألهمت إبداعات الشعراء والكتاب:

حيس .. تاريخ عريق وحياة بنكهة الأرض

استطلاع/ محمد علي الجنيد

حيس من أشهر المدن التاريخية التي تميزت بثقافتها الفخارية وتراثها العلمي لمعالجته من دور حضاري يمتد بجذورهـا التاريخية إلى عصور ما قبـل التاريخ ((ما قبل معرفة الكتابة)) وحتى بعد العصور التاريخية.

أليـس الزمـان بأهله، والمـكان بمقوماته مـن أحجار ومبان وأنهار وجبال؟! فأي منهما يعود الإبداع إليه؟!

يقال: ((إن الزمان يضفي عبقريته على المكان، فتتحول هذه الجمادات إلى شـخوص ناطقـة، تخاطب في أهل المكان عبقريتهم، فتخرج أفضل ما فيها لتتخلق العبقرية الحقيقية)).. وثمة أمكنة حين يمر بها المرء، تترك أثراً في نفسـه، وتحفر عميقاً في وجدانه، فتأخذ حيزاً من ذاكرته وقلبـه، أمـا إذا كان مبدعاً، فإنها تلهمه وتشـعل بنات أفكاره، فيخلدها بمنجز أدبي، فكري ولا يغيب عنا.. كيف أتخـذ الروائي ((أيفواندريتش)) الجسـر كمـكان.. وجعله بطـلاً في روايته ((جسـر علـى نهر درينـا)) وكيف اتخذت مدينة بيروت بطلاً لأكثر من رواية، وكذلك مدينة دمشق سواء في الرواية أم في القصة أم في الشعر؟!

كذلك هي مدينة حيس ((المدينة الصامتة)) كما سماها المؤرخ الكبير عبد الرحمن طيب بعكر بـ(حيس الصامتة)) التي أنجبت الكثير من الأعلام والرموز في شتى المجالات ومنهم الموسـوعي الأديب والشاعر والمؤرخ الفقيد عبد الرحمـن طيب بعكر الذي غادرها في ١٨ يناير ٢٠٠٧م.. إلا أن تسـمية (حيس الصامتة) كما يحلو له وصفها كان عزاء لها لقاء ما تجده من إهمال.

وستمضي حيس صامتة إلى ما لا نهاية لتغرق في رمل الكآبة رغم ضجيج العالم.

ونحـن في "الثورة" نحاول الكشـف عن عبقرية الزمان وأهل المكان، كون حيس أثرت في نفوس وإبداعات الشعراء والكتاب فإلى تفاصيل ذلك:

– حيـس تعد أقدم مدينة بتهامة ظهرت قبل الإسـلام، إذا كشـفت البعثة الكندية الأثريـة التابعة لمتحف انتاريو الملكي بالتعاون مـع الهيئة العامة للآثار اليمنية من خلال مسوحاتها في مارس ؟ إبريل ٢٠٠١م، عن العديد من الآلات الحجريـة والقطع الفخارية التي يتفـاوت تاريخها ما بين فترات التاريخ وبداية العصور التاريخية فضلاً عن الرسوم الصخرية التي أكدت ميلاد حضارة العصر البرونزي خلف مدينة حيس، تحديداً بمنطقة وادي كيدة بجبل مستور، تلك الرسوم الصخرية تمثل رسوماً لأشخاص يقفون جنباً إلى جنب وكأنهم يؤدون طقساً معيناً ورموزاً وأشكالاً هندسية مربعة ومستطيلة وصوراً تعبر عن سيقان ممتدة وحيوانات ربمـا وعول دلت عليها الذيول المتدلية، وبعضها لا زالت مبهمة حتى الآن ومن الصعب تفسيرها.

وحيس تاريخها ضارب فـي أعماق التاريخ وأصبحت محطة تجارية بين أبناء الجبل وسـكان السـهل وامتداد أراضيهـا الخصبة وغزارة الميـاه التي فيها بالريف بينما المدينة تعاني العطش رغم "دندنات" مياه "الدنيين" المستمرة التـي كلفت ١١٠ ملايين ريال وسـمع الجميع "هدير" تلك الميـاه القادمة من "الدنيين" إحدى قـرى مديرية الخوخة، ولكـن لا أدري ماذا حصل بعد تلك الوعود الرسـمية من قيادة المحافظة في تسليم المشروع للمؤسسة المحلية للمياه والصرف الصحي بالمحافظة؟!

ووعـد المجلس المحلي بالمديرية بإنشـاء بئر ثالث ومده بمضخـة ومات ذلك الوعد بموت الفقيد عبد الكريم نعمان ؟ نسـأل الله الرحمة له ؟ مدير عـام مديرية حيس رئيس المجلس المحلي سـابقاً.. وتم الاتفاق مع المحافظ السـابق أحمد سـالم الجبلي بحفر بئر مياه جوار الآبار الموجودة وتم حفر ذلك البئر ولكن المؤسسة العامة للمياه والصرف الصحي بالمحافظة لم تتسـلم المشروع كما وعدت بإعادة تأهيله، مليون ومائتان ألف ريال ما يتم تحصيله شهرياً من المشـتركين لا يغطي التكلفة التشغيلية الشهرية للمشروع من شـراء ديـزل وزيوت وقطـع غيار وأجـور الموظفين.. واستنزاف مياه المشروع من قبل ٢٥ قرية من قرى الخوخة أسهم كثيراً في ذلك العجز والتدهور الكبيرين.

حيس تضـج بمقامات الأوليـاء الصالحين كالخامري والجبرتـي وأبو الحياء وابن غريـب والقائمة طويلة جداً، والذاكرة تخونني الآن في ذكر كل الأسماء.

ويكفي فخراً أني عرفت فقيدنا الغالي عبد الرحمن طيب بعكر هناك فـ(بعكر) قامة سـامة الضوء فارعة الفن تربع عروش قلوبنا وسحرنا بأفانين الإبداع والابتكار، فالأستاذ الأديـب والمؤرخ الراحـل عبد الرحمن طيـب بعكر أثرى السـاحة الثقافية اليمنية إثراءً كبيـراً ولكن هذا العملاق رغم عطائه الواسـع إلا أننا قصرنا كثيراً معه، لم نسمي مدرسـة باسمه، أو أطلقنا اسمه على إحدى قاعات كليات جامعتنا أو سـمينا شارعاً من شـوارع محافظتنا به، أو أسس باسـمه منتدى ثقافي أو ما شـابه ذلك تخليداً له، فهو صاحـب (المرحلـة الضبابية) ورسـم ملامح اليمن والضمادات المطلوبة ودق في (أجراس) وتألق في (عناقيد أدب وفـن) وكان رائعاً بـ(الأنمـوذج الفائق للنظم الرائق) وتأمل كثيراً في روعة "سـجادة الخضر" وأحب أن يغني لـلأرض الطيبة من خلال "كيف غنت تهامـة" تهامة بوابة الشـعر، وملهمة العشاق، وفردوس الروح ومنجبة العلماء فغـادر "بعكر" هذه الدنيا تاركاً لنا تراثـاً وموروثاً وفكراً وثقافة وفنـاً ما زالت رهينة العتمة والنسـيان تحتاج من يتولى طباعتها وإخراجها للنور فهل هناك من قادر بإخراج ذلك الكنز الثمين؟!

فهل الدكتور عبد الولي الشميري يكمل مشواره بطباعة كتب ومؤلفات بعكر كما أخرج "سـجادة الخضر" و"كيف غنت تهامـة"، أم بعد رحيل "بعكر" لم تسـتطيع "الإبداع" تقديم إبداع "بعكر" للنور؟!

حيس لوحة رائعة رسمها التاريخ ووهبها للمكان، فأثرت قديماً وحديثاً، في نفوس المبدعين سـواء كانوا شعراء أم كتاباً أم مفكرين.

زارهـا الكثير من أمـراء الدولة الرسـولية والطاهرية وغيرهم الكثيـر وفيها الجامع الكبير الذي سـبق لنا من خلال "الثورة السـياحي" الحديث عنـه بصورة واضحة وسـبق للزميل الرائع دوماً علي سـالم غالب ؟ مدير فرع المؤسسـة بالحديدة ؟ التطرق إليه مـن مختلف الجوانب وبالذات الفن المعماري الرائع فيه، في "رمضانيات الثورة" فالأسـتاذ علي سـالم غالب ؟ يقف معنا دائماً ويسهل لنا الكثير من الصعاب التي تقف بطريقنا ؟ ويمدنا بالمعلومات والصور بصورة مستمرة وتجده سيتقبلك والابتسامة على ثغره مشرقة بهية تفتح جسر عبور إلى قلبك..

ولا أنسـى الأخ منيـر القباطي ؟ نائب المديـر ؟ الذي يسـتقبلك هو الآخر ببشاشـة وأذهب أخزن عنده بالبيت، تجده هائماً على صوت (السـمة ؟ والآنسي ؟ والحارثي ؟ وأيوب طارش" بشـوق أفقه البحر، وأحياناً أتيه طالباً منه "سلفة" ولكن ما يردنا كالأرض الطيبة.

هـا هـو الريـف الحيسـي الذي يغمرك بمجانيته فكل شيء فيه بالمجـان، ولـي بحيس حكايات وعلاقات وأهل وأحباء وأصدقاء وأخوه وغيرهـا مـن الروابط والعلاقـات كالتواصل والاتصال وإلقاء الحميم بـكل مـن فـي حيس فالأساتذة "إبراهيم بريه ؟ أبو زيد ؟ علي حسـن العمـار، محمد صالح عكيش، محمـد صالح العسـكري ؟ عبدالله عقد، أنور أبـو هادي، د/ ثابت حسن عكيش، محمـد صالح سـليم، عبد السلام الشرعبي" هـؤلاء علموني بالمرحلة الأساسـية والإعدادية والثانويـة ويبقـى لهم الفضـل بعـد اللـه لما وصلت إليـه من نجاح وتقدم وتألق وإبداع.

وهناك أهلي ذات القربى "علي، سعيد، عبد الله، رمضان محمد علي محـي الدين ومحمد، وعبده وحسـن مهيوب جعمان" وبعدهم أصدقائي الأحباء الذين أسهمت معهم في معركة محاربة الفساد وبعضهم تعرض لمضايقات وصراع أهلي كالأستاذ محمد قاسم دريبان الأكثر روعة وإنسانية بحيس.

وهناك الفندم والتربـوي وصاحب البقالة وغيرهم ممن خاضوا تلك المعركة لا داعي لسـردهم لأنهم "خائفين" من المواجهة كالفئـران، ويبقى زملائـي الإعلاميين البارزين كالمذيع المتألق باليمن "صدام حسن" والصحفي الإعلامي المتميز بتناولاته الزميل وديع دعبوش عطا الذي تربطني به أخـوة صادقة وحياة نابضة بالصدق والعطاء، والصحفي الهـادئ دوماً "هدهد" وكالة الأنباء اليمنية "سـبأ" الزميل حمزة الحضرمي المبدع الذي يكتب أكثر مما يتكلم، يناقش قضايا في الصميـم الثقافي وتربطني به علاقة أخوية في الصميم رغـم الاختلاف في وجهات النظـر ولكن هويتنا موجودة ولا تحتاج إلى حجة.

رعـى الله أيام زماا ان حين كنت أخـرج برفقة الدكتور فؤاد مشـهور والدكتـور محمد إسـماعيل حمنه، وأخي الزميل وديع عطا والأخويـن نعمان ونبيل راجح وأبو زيد ومحمد قحطان، ما زلت أتذكر تلك الصباحات الندية حين كنا نخرج إلى الوادي الجميل بعد تأدية صلاة الفجر وبعد شـرب تلك الفناجين من البن البلدي بنكهة الروح المتجددة كالصبـاح الندي في مقهى "الصوال" أشـهر مقهى للبن بحيس.

ها هي حيس تسـترخي بالـوادي ملقية عباءتها، رافعة رأسها في شموخ يضاهي جبال "دباس والبرشي" أتلمس بعيني ما أراه، فأجده عابقاً بالحياة والضياء، أصغي إلى روحي فأسـمع إيقاعاً صوفياً هادئاً يرتل في خشوع تام قصيدة حب ووفاء للأستاذ نبيل سعيد أحمد راجح قائلاً:

حيس أمـي كـم أنجبت أبنـاء
عشـقوا المجد والعـلا والبنـاء
حملـوا فـي صدورهـم أمنيـات
مـن طمـوح تجـاوز الجـوزاء
بذلـوا الخيـر فـي البـلاد لينمـو
دوحـة قـد تفرعـت أفيـاء
وحـدوا الصـف لا تكونـوا شتاتا
واجمعـوا الشـمل لا تكونـوا أغثـاء
فشـتات القلـوب يحـدث ضعفـاً
ويحيـل الجهـود حتمـاً هبـاء
وائتـلاف القلـوب ينجـز مجـداً
ويحيـل الأرض جنـة خضـراء
إن حيـس القنـا تريـد بنـاءً
فاعمروهـا محبـة وإخـاء
إن حيـس القنـا تراكـم رجـالاً
فلتكونـوا رجالهـا الأكفـاء

تلك الأبيات الرائعة جسدها ابن حيس المخلص لأرضه بعفوية بريئة، هكذا تأتي المشـاعر ؟ وتبقى حيس شاهدة علـى العصر، وبين ثنايا الريف يرقـد تاريخ عريق.. وثمة حكايـات عن صناعة التاريخ ترقد بين ثنايا الإطلال دقائق مؤلمة عن واقعنا لا سبيل إلى إنفائها.

شفافية الروح

في حيس سـتعود بجسد منها ويبقى للروح مطرح بين تفاصيل المكان وروعة ما يشد الأنظار.

قـال الله عـز وجل: "ولقد خلقنا الإنسان من سـلالة من طين" صدق الله العظيم، الطين مادة قابلة التشـكيل في أي صورة من صور الخلق والإبداع.

الطـين هـو المـادة الوحيدة التي استجابت لنداء الروح فكان أبونا آدم عليه السـلام ومن هذا الطين خلـق أبونا آدم عليه السلام، فالطين من شأنه الرزانة والحلم والتثبيـت، والطين محل الإثبات والنمو والزيادة والإصـلاح، وإن طـين حيـس يرتفـع إلـى مستوى الروح وأرضها خصبة لمعامـل الفخار فقـد قيـل أن هناك ٧٨ معملاً للفخار ولم يتبق سوى ثلاثة.

الطين مدهش وغريب للغاية فهـو من النعومة واللين مـا يصل به إلى شـفافية الروح ونقاوتها، لهذا السـبب كان لأبناء حيس خاصة وأبناء تهامة عامة الشـفافية والبراءة والرقة فكانوا أقـرب إلـى الملائكة منهم إلى البشـر ولهـذا فهم وعامة اليمنيـين (أرق قلوباً وألين أفئدة) كما وصفهم نبي الرحمة صلى الله عليه وآله وسلم.

"حيس الصامتة" نطقت وتحركت شفاتها في ٢٧ أبريل ١٩٩٧م حين نفذ المرحوم أحمد مرشـد دعاك ؟ رحمه الله ؟ فكرة الشـاعر المكدود أحمد قـارة ؟ الذي ما زال لقاؤه في أرشـيف الثقافية منذ فترة، بترشيح الشيخ نصر زيد محيي الدين، لخوض انتخابات ١٩٩٧م ودخل "الأسد" ملك الغابة وابتلع "الحصان" حينها، كون الفارس لم يكن شاباً طموحاً يانعاً، لهذا جاء الفـارس الطموح نصر زيد الذي روض (الخيل) وامتص ظهره حتى الآن، وبدأ الشيخ نصر زيد محيي الدين بالعمل بكل طاقاته وإمكانياته المتاحة من أجل "حيس ؟ الأرض ؟ والإنسـان" وشهدت حيس حراكاً خدمياً بارزاً.

وأصبح لها مجمع حكومي ومركز للشـباب والرياضة ومركـز الملاريا وتم إدخال التيـار الكهربائي إليها، والآن يجري العمل في إنجاح الخط الدائري لها وبذلك شـهدت إنجاز الكثير من المشاريع الخدمية بالمديرية.

حيس فيهـا ٧٤٢٧ مسـكناً و٦٨٨١ أسـرة و٢٢٠٣٥ ذكورها و٢٢٨٩٧ نساءها بحسب إحصائية عام ٢٠٠٤م.

وإنـي أتمنـى أن يتوقف الأسـتاذ عن بناء مدرسـته والاحتفاظ بطلابه بداخلها بصورة مستمرة، والشيخ عليه تنقية وتصحيح ومعالجة الخلـل داخل مملكته، فالأخطاء الفنية الكبيرة يروح ضحيتها الكثير من الأبرياء، ولا بد أن تؤسـس لبناء منطقة حقيقة ينعم مواطنوها بالرخاء والأمن والاستقرار.

ما حكاية "الزنط" الحيسي؟!

يقولون "لا تشارع بزبيد ولا تزنط بحيس" لكن ذاك مثال ولكن ما حكاية "الزنط" الحيسي؟!

فالزنط المعروف التكبر والدلع والتعالي، هذا هو المعروف لدينا وهذا ليس موجوداً في الحيسيين ولكن يبقى السؤال: لماذا ارتبط "الزنط" بأهل حيس؟!

سألت عن تلك الورود البنفسجية التي تزين عقود الفل، فقيل "الزنط" وهو نوع من الورود يزرع في جبل البرشـي ومناطق أخرى، فإن ذلك الزهر البنفسجي الموحي بالجمال للعين وليـس بالرائحة كالفل، وتجد الـكل يتأنق بـ(الزنط الحيسي) الذي يجعله أكثر جمالاً وإبهاراً ويحظى باهتمام كبير من قبل النسـاء من خلال إبرازه بشكل كبير ومتنوع في عقود الفل التي تكون دائماً ملازمة لكل المناسبات.

ويبقى "الزنط" مستمراً وما تزال زراعته قائمة ويعتمدون عليـه كمصدر دخل، وحيس تشـتهر بالفخـار والحلوى اللذيذة التي تشبه حلاوة القبيطة.

وداعاً!!

ودعتها وكلي أمل أن أعود إليها واجدها متألقة كما هي دائماً وعلى أبنائها التكاتف ورص الجهود للظهور بمظهر تسـتحقه هذه المدينة فهي مدينة فيها الكثير من الدهشـة ومزيـد من الذهول وغادرتها وأنا أنظر إلى ابتسـامة أبو زيد من داخل كشـكه الصغير يطالع ويلـوح بيده مودعاً وقائـلاً: إياك.. إياك تتأخر عنا ونبقـى على تواصل دائم رعتك السلامة..

- مدينة الفخار من طينها خلق آدم عليه السلام!